

البناء وتغيير ما في الأنفس



«- البناء.. وتغيير ما في الأنفس وسورة الرعد: أهل الإيمان الصادق والغيرة على أمة الإسلام، يؤرقهم الحرص على أن تستأنف هذه الأمة مسيرتها الخيرة في بناء الفرد والمجتمع على هدي كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وأن تنمي قدرتها العلمية ومواردها البشرية والاقتصادية، وتضعها بوعي ومنهجية على الطريق الذي يسمو بها - بإذن الله - إلى القوة الذاتية والوجود المتميز، لتعود إلى أداء رسالتها في العالمين إعلاءً لكلمة الله. ونشراً للقيم التي تسعد الإنسان وتحفظ عليه وجوده وكرامته وترتفع به - في ظل بنيان حضاري سليم بقيمه الإسلامية - إلى حيث يسعد في الدنيا ويوم الدين (إِنَّ تَذْصُرُوا اللَّهَ يَذْصُرْكُمْ وَيُثْبِتْ أَقْدَامَكُمْ) (محمد/ 7). والحق أن هذه القضية الكبرى يرتبط تحقيقها بسلوك السبل المؤدية إليها والأخذ بالأسباب من أطرافها، على السنن الذي درج عليه أولئك الذين حملوا العبء وارتادوا الطريق عقيدة وعلماء وعملاً وجهاداً في سبيل الله. ولذلك ما بدت من أن تغير الأمة ما هي عليه من أسباب الضعف: حتى يغير الله ما بها. في ظل هذه المقولة درج الكثير من أولئك المؤمنين الغيورين على الاستشهاد بداهة بقوله تعالى في سورة الرعد: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد/ 11). وقوله في سورة الأنفال: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا لِّعَمَلِهِمْ إِلَّا نَعْمَةً أَرْسَلْنَا قَوْمَهُ لِيُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الأنفال/ 53). ولكن الدلالة في

الآيتين الكريمتين كليهما لا تعطي هذا الذي يراد الاستشهاد له، وحين أقول هذا لا أقوله تثبيطاً أو تخذيلاً لا سمح الله فهناك الكثير من النصوص والوقائع التي تعطي أن نصر الله للأمة مرتب بأن تنصر الأمة ربها بالاستمسك بأهداب الدين اعتقاداً من داخل النفس وقولاً وعملاً، وتستأنف الحياة على سنن السلف الصالح به كما في قوله الله تعالى: (إِنَّ تَذْمُرُوا اللَّهَ يَذْمُرْكُمْ وَيُذْذِبْكُمْ وَأَقْدَامَكُمْ) (محمد/ 7)، وقوله جل شأنه: (إِنَّ يَذْمُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنَّ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلَا يُدْرِكُ أَلْمُومُونَ) (آل عمران/ 160). ولكن أحرص على الوقوف عند الذي تدل عليه ألفاظ الآية الكريمة وسياقها وما ورد في شأنها أو قاله العلماء على وجه العموم؛ ففي سورة الرعد وفي سورة الأنفال: ما تعطيه الكلمات القرآنية في هذا الصدد، أن الله، وهو المنعم المتفضل، لا يغير ما بقوم من النعمة فيسلبها عنهم حتى يغيروا هم ما بأنفسهم من التقوى والاستقامة والإخلاص له عز وجل. وهاكم ما ورد في سورة الرعد نذكره هنا ونثني عليه من بعد فيما يأتي بما ورد في سورة الأنفال إن شاء الله. ذلكم قوله تعالى بدءاً من الآية الثامنة: (لِيُحِزَّ الْقَلْبُ وَيُدْطَلَ الْأُتْبَاتِلَ وَالْوَكْرَهُ الْأَمْجَرْمُونَ * إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنْ رَبِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِيفٍ مِنَ الْأَمْلائِكَةِ مُرْدَفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ الذُّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَیْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ كُومَ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَدْرِبَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُذْذِبْكُمْ بِهِ الْأَقْدَامَ) (الأنفال/ 11-8)، إن البنية الثقافية التي تنشئ التصورات بين يدي العمل: لا بد أن تكون سليمة الارتباط عند المسلم بالأصول الأولى في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وتحرير الخطوة الأولى على طريق البناء على ذلك: ضرورة ملحة؛ لأن هذه الخطوة لها ما بعدها في إنشاء التصور وفي الحوافز التي تحفز إلى العمل والإسهام فيما يعود على الفرد والمجتمع بالنفع. وفي عاقبة الأمور. - مع البناء.. وسنة الله في التغيير: لا يعوز الناظر في معالم الكتاب العزيز وما لها من أبعاد في بناء الإنسان والمجتمع.. أن يقع على واحدة من ركائز المنهج الرباني كما هو في الفرقان الحكيم وبيان من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، وهي أن لا يقتصر على الدعوة إلى البناء على الوجه المطلوب، ولكن يضم إلى ذلك دعوة إلى التذكر والتبصر عند النوازل والنكبات، من أجل أن يتبين الفرد والجماعة في حال انحسار العطاء عن الأمة وتغيير الله ما بها من النعم.. أن يتبينوا الأسباب التي أدت إلى الانحسار والتغيير، فحل بالأمة ما حل من الضعف

والتراجع عن موقعها القيادي في العالمين، وصدق ربنا جلّ شأنه إذ يقول في سورة "هود":
(فَلَا وَوَلَا كَانَ مِنَ الْقُورُونَ مِّنْ قَبْلِكُمْ أَوَلَوْ بِقِيَّةٍ يَنْذَهُوْنَ عَنِ
الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْزَلْنَا مِنْهُمْ وَاَتَّيَعَ الَّذِينَ
طَلَمُوا مَا أُتِرُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ
لِيَهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصَلِحُونَ) (هود/ 116-117). وتبيّن
الأسباب بصدق وشجاعة: يسلم إلى قراءة جديدة متدبرة لمنهج البناء وطريقة القضاء على
عوامل الهدم من داخل النفس ومن خارجها في توجيه وحركة لحياة، ذلك بأنّ سنة لا تتخلف
في أمر التغيير - وهي أنّه لا يغير ما يقوم ما يحبون من النعمة والإمداد بمقومات الخير
والنماء إلى ما يكرهون من انحسار ذلك عنهم، حتى يغيروا ما بأنفسهم من الطاعة والإنابة
إليه سبحانه. فطالما كانوا على الجادة استقامة على الطريقة، وسلوكاً لا يخالف عن أمره،
فالفضل مستمر لا ينقطع، تغمرهم خيراته وثماره الطيبة في كل ميدان من ميادين الحياة..
حتى إذا غيروا ما بأنفسهم، فظلموا، وبدّلوا سوءاً بعد حسن حلت بهم النعمة، فغيّر الله ما
بهم ووكلمهم إلى أنفسهم والعياذ بالله. وحرصاً على أن يكون المؤمنون على بيّنة من أمرهم
وهم يقطعون رحلة البناء على أرض التاريخ؛ جاء التصريح بالسنة الإلهية المشار إليها في
أكثر من موضع من كتاب الله كما نرى في سورتي الرعد والأنفال وذلك بجانب دلالات لنصوص تقع
عليها في عدد من المواضع. ففي سورة الرعد نقراً قول الله تعالى - كما أشرنا في كلام سبق:
(اللَّهُ يَعْزِمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا
تَزِدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَسَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ
بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقَّبَاتٌ
مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ
اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا
أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدٍّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ
وَالِ) (الرعد/ 8-11). وتطالعنا سورة الأنفال بقوله جلّ شأنه: (كَدَّأَبٍ آلٍ فِرْعَوْنَ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ
بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ
لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْزَعَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا
بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الأنفال/ 52-53). وإلى أن نلتقي على
ضياء البصيرة القرآنية في هذه الآيات من سورة الرعد، وفيما نقراً في سورة الأنفال إن شاء
الله: أودّ الإشارة إلى أنّ الحرص على تجاوز الواقع الذي يعيشه كثير من المسلمين، وإنشاء

مُعَقَّرَاتٌ مِّنْ بَيْتِنِ يَدِّيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُوزَهُ مِّنْ أَمْرٍ
اللَّهِ)، فلكل ممن أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار، ملائكة
يحفظونه من الأسواء والحادثات، يتعاقبون في ذلك، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من
خير أو شر... وبعد هذا البيان جاء تقرير السنة الإلهية التي عمادها أن لا يغير ما
يقوم، فيحوّل عنهم ما يحبون من النعم ومقومات الخير والنماء، إلى ما يكرهون من انحسار
ذلك عنهم: حتى يغيروا ما بأنفسهم. وتبارك ربنا الحكيم في سننه التي تتحوّل، العليم بما
هو الأصلح لعباده، الذي نزّل الفرقان على مصطفاه من خلقه سيدنا محمد بن عبد الله ولم
يجعل له عوجاً. المصدر: كتاب بناء الأمة ومواجهة التحديات